احتراق واسمه راشد حسين

تحويل الموت الى حياة، تحويل النار الى سنابل، تحويل صرخة المعركة الى صرخة ولادة: هذه هي مهمتنا وهذا هو أسلوب حياتنا.

أود أن أقف قليلا مع الموت. كان بودي أن أتعامل مع الموت الشامل، الموت العام والعالمي، لكن يا للحسرة، فها هو ينتصب كالمارد ويلقي ظله على كل موت سواه ... إنه الموت الفلسطيني.

تكاد تقصم ظهري محاولة مثابرة، لصياغة معادلة معقولة لهذا الموت الفريد. ولا اقترب من التبرير حتى أتبدد بين الضحك والبكاء.

هل يموت الفلسطيني حتف الانف ؟ الا حظ له من الشهادة وكبر الاستشهاد حين يموت في جناح السرطان من مستشفى الغربه؟

هل ينتحر الفلسطيني ؟ هل ينطبق قانون " الحاضر الغائب" على الفلسطيني في هذه الدوله التي أسمها اسرائيل أم في العالم باسره؟ وأين تقع اسرائيل؟ وأين يقع الفلسطيني؟ واين يقع الموت؟

(الان أريد ان اخاطبك يا راشد حسين! سواء احترقت او احرقت او تحرقت او انحرقت. لا ثقة لي بضباط شرطة نيويورك ولا ثقة لي بنيويورك. انت مت موتا فلسطينيا في جناح النار من مستشفى الغربة، لذا فانت شهيد بكل المعنى الفلسطيني لهذه الكلمة).

كل شعوب الارض تسكن اوطانها، الا نحن، فهذا الوطن يسكننا.

إنه وضع غير طبيعي، حالة شاذة. لا تقولوا روديسيا. لا تقولوا جنوب افريقيا. ولا تقولوا هنود امريكا الحمر او زنوجها. تصوروا منزلا أهلا بسكانه صاخبا بالحياة والحركه. فجأة يخلو البيت من أهله وفجأة يعود الصخب، تعود الحياة وتعود الحركه ويواصلون شرب فناجين القهوة الساخنة ويواصلون القطاف ويواصلون التناسل ويواصلون مشاهدة الافلام السينمائية... بيد أن كل ذلك يجري بلغة أخرى . كل شيء يستمر الا اللغة واصحابها.

في هذا الجو نشأنا. في هذا الواقع - الكابوس نشأ راشد حسين.

في حدود عام ١٩٥٦ - المدرسة الثانوية البلدية- الناصرة .

كنت طالبا يكتب الشعر وكان راشد شاعرا طالبا. انكم تلاحظون الفرق بين الصيغتين. في المدرسة ذاتها كان شعراء طلاب اخرون. كان شكيب جهشان (المدرس في ثانوية الرامة، اليوم) وكان فرج نور سلمان (المحامي، اليوم) وكان احمد ريناوي (الطبيب، اليوم) .. واخرون قد لا نعرف مصائرهم. كانوا اكبر مني بمعدل ثلاث سنوات تقريبا غير أنني اندمجت في شلتهم بحكم حماسي للشعر، ومنذ ذلك الوقت نشأت بيننا صداقات متفاوته .. وكانت صداقتي مع راشد حسين من أمتنها إن لم تكن أمتنها وابقاها.

والتقينا كثيرا فيما بعد اتفقنا كأخوين واختلفنا كأخوين. تسللنا معا عبر الارض البور لاحياء مهرجانات في قرى منعتنا السلطات من دخولها وسدت منافذها الشرعية بقوات البوليس. جعنا معا وسكرنا معا وبكينا وضحكنا وكتبنا ... ثم افترقنا..

على صوره صغيرة اهداني اياها راشد عام ١٩٥٨ بعد صدور ديوانه الأول "مع الفجر" كتب هذه الكلمات:

الى اخي سميح

عله يتذكرني اذا اصابتني مصيبة".

وتذكرته يوم أصابته وأصابتنا المصيبة .. وكانت صورته هذه هي الصورة التي وضعناها على بطاقة النعي!

في ٣٠-٤-١٩٥٩ كتب راشد على ورقة ما زلت احتفظ بها:

"أخي سميح
والى غد مشرق سعيد
والى أمة عربية موحدة
ستلتقي على جراح علمٍ
يرفعه الأوراس فوق جرحِهِ
ستلتقي..أمتنا في زورق
مجدافه يخط رسم صبحه
والشمس تاريخ لنا مذهّب
يذيبه بستاننا لدوحه
أنا هنا..وأنت هل تبقى هنا؟
أم يحتوينا علم في جرحه؟"

اليوم أقولها لأول مرة. في ذلك الوقت كان في أوجه صراع عنيف بيني وبين السلطة الاسرائيلية الغاشمة التي حاولت قتلي معنويا بأن تطبق علي قسرا ووحشية قانونها اللا انساني، في أدنى وصف، قانون التجنيد الاجباري. آنذاك استحوذت علي فكرة الهرب من وطني الصغير الى وطني الكبير وصارحت راشد بالهاجس، فكتب هذه الابيات واحتفظت بها لتكون صديقا في الغربة، وباشرت "تنفيذ المهمة".. وذات يوم، في ساعات المساء، كنت قابعا على سطح كنيسة

قرية الجش الجليلية بانتظار الليل لعبور خط وقف اطلاق النار، ولكن قبل أن يداهمني الليل، داهمتني "ثلة" من أبناء بلدي وعشيرتي وخيرتني الجماعة بين العودة الى أمي الناحبة والعودة الى مركز الشرطة، فاخترت أمي طبعا! وما زلت أتساءل حتى هذه اللحظة: هل كان لأخي راشد يد في "افشاء " سري .. لأهلي ليحول، مشكورا، بيني وبين الرحيل؟..

قال راشد في أبياته "سنلتقي".. والتقينا. عاد راشد الينا عبر بوابة النار الفلسطينية الرحبة. عاد محمولا على الأكتاف .. وكان عليه ان يعود عودته الكبرى الى أحضان الأم - الوطن، الى دفء التراب الذي طالما غناه وبكاه. وما أشد حسرتي ولوعتي حين اختارتني المأساة لا "القدر" .. لأكون أول من يقتلع نعش راشد من مصطبة المسجد الصغير في قرية "مصمص" الصغيرة، ولكن، العالية، لتزرعه الألوف المؤلفة من جماهير شعبنا على السفح الأخضر من وادي عارة.

وفي غمرة التهليل والتكبير والهتافات الوطنية الملوعة، وفي غمرة الدموع الساخنة الدامية وزغاريد الصبايا وذهول الأطفال، وبينما جسدك المحروق المحترق المتحرق، معا في أن يختلج على أكتافنا لتنطلق منه، مرة أخرى، عنقاء رماد عربية، في غمرة كل ذلك، كانت تعاودني من أعماق عام ١٩٣٦ عام الثورة العظيمة وعام ميلادك، أهازيج شعبنا الرائعة:

"يا طلت خيلنا من قاع الوادي
عوايد رجالنا تكيد الأعادي
ويا طلت خيلنا من وادي عاره
وعوايد رجالنا بتصد الغاره"

عدت الينا يا راشد، عودة " تكيد الأعادي " وخرجت لاستقبالك

الألوف المؤلفة من أبناء شعبنا لتجدد القسم بأن "تصد الغارة".. وانك لتجسد كلماتك، كما تجسد كلمات الشهيد الشاعر عبد الرحيم محمود ابن شعبنا البار:

سأحمل روحي على راحتي
وأهوي بها في مهاوي الردى
فاما حياة تسر الصديق
وإما ممات يغيظُ العدى!

وبعد يا راشد، يا أخي ورفيقي، لدي كلام كثير لك وعنك .. وسأقوله .. بيد أنني أودعك الآن بكلمة صغيرة كفرحنا، كبيرة كعذابنا: "صحيح أننا التقينا كما أكدت في أبياتك لي، غير أن العلم احتواك في جرحه، وأما أنا فما زلت انتظر دوري، أنتظره بكل الأمل والعذاب والحب!"